خطبة صلاة الجمعة 10/ 10/ 2025 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال، في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(بين النظام والفوضى)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠)﴾ [يس: 37-40]

أخرج أبو داود وابن حبان في "صحيحه" من حديث محمد بن مسلم، قالَ: صليت إلى جنب أنس يوماً، فقالَ هل تدري لم صنع هذا العود؟ قلت: لا والله. قالَ: إن رسول الله ﷺ كانَ إذا قام إلى الصلاة أخذه بيمينه، ثم التفت، فقالَ: «**اعتَدِلوا، سَوُّوا صُفوفَكم**».

وأخرج الإمام مالك في "الموطأ" عن نافع، أن عمر كانَ يأمر بتسوية الصفوف، فإذا أخبروه أن قد استوت كبر.

وبإسناده، عن ابن عمر، أن عمر كانَ يبعث رجالاً يقيمون الصفوف في الصلاة.

عنوان خطبة اليوم: **بين النظام والفوضى**

يعدك أن يزورك في السابعة مساء فإذا به يصل عند الثامنة معتذراً مبتسماً يقول إنه عرضت له مسألة فحلها ثم جاء، الأمر الذي دعاه للتأخر، وربما لا يعتذر أصلاً. إنها فوضى المواعيد

يتناول الأطفال طعام الإفطار عند السابعة ويتناول الأب إفطاره عند الثامنة ويخرج الأخ الكبير من البيت من دون إفطار وتتناول هي إفطارَها عند استيقاظها مع ابنتها في العاشرة. إنها فوضى البيوت.

يبدأ بمطالعة كتاب في العقيدة ويتوقف عند الصفحة الثالثة والعشرين منه، ثم ينتقل إلى كتاب غيرِه ويتوقف عند الصفحة الخمسين، ثم يبدأ بقراءة الثالث. ويحضر في مجلس علم في أحد مساجد البلدة لمدة شهر، ثم ينتقل منه إلى مجلس آخر لشهر جديد، ثم ينتقل إلى المسجد الثالث، إنها فوضى طلب العلم.

تدخل إلى بعض المساجد لتجد بعض الساعات تعمل وبعضها معطلة، وبعض الإضاءة تعمل وبعضها معطلة، وترى الكراسي مبعثرة في المسجد، وبرادات الماء نصفها لا يعمل، ويؤذن عند كل وقت أحد الحاضرين ويؤم آخر، وربما خطب، إنها فوضى المساجد.

تدخل غرفته الخاصة فتجد الكتب مبعثرة على الطاولة، والملابسَ مرميةً على السرير، والأحذيةَ وبعضَ الأجهزة الكهربائية مفرقةً في الغرفة، إنها فوضى الغرف.

يبدأ دوامه في محله عند العاشرة في يوم وعند العاشرة والنصف في يوم آخر، وعند الثانية عشرة في يوم ثالث، ويسلمك البضاعة في الوقت المحدد حيناً وفي غير الوقت أحيانا، وليس عنده تسجيل للدفعات ولا بيانات وكشوف وإنما يحفظ ذلك كله حفظا، كما يقول. إنها فوضى الأعمال والأشغال.

أيها الإخوة:

عرف العلماء الدين بأنه نظامٌ إلهيٌّ سائق لذوي العقول السَّليمة، باختيارهم المحمود لِمَا فيه صلاحهم في الدُّنيا، ونجاتُهم في الآخرة.

فالدين كله نظام، نظام في العقيدة ونظام في الشريعة ونظام في الأخلاق. وبهذا تكون الفوضى خارجةً عن الدين.

كان النَّاس يعيشون قبل الإسلام في فوضى تضرب جذورها في كلِّ أنحاء الحياة، فوضى في العقيدة، وفوضى في الشَّريعة، وفوضى في الأخلاق.

ففي العقيدة كان أناسٌ يعبدون الحجر، وأناسٌ يعبدون البقر، وأناس يعبدون الشَّجر، وعبَدَ قومٌ البشر، وسَجَدَ قومٌ للقمر، وركع قومٌ للبشر، اتَّخذ واحدهم إلهين اثنين، واتَّخذ آخر ثلاثة آلهة، بينما عبد آخرون عشرة من الآلهة، وربَّما عبَدَ الرَّجل كلَّ يوم إلهاً، فله في كلِّ سنة ثلاثُ مائةٍ وستون إلهاً!!

روى البخاري عن أبي رجاء العطاردي قال: «كُنَّا نَعْبُدُ الْحَجَرَ، فَإِذَا وَجَدْنَا حَجَرًا هُوَ أَخْيَرُ مِنْهُ، أَلْقَيْنَاهُ وَأَخَذْنَا الْآخَرَ، فَإِذَا لَمْ نَجِدْ حَجَرًا، جَمَعْنَا جُثْوَةً مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ جِئْنَا بِالشَّاةِ فَحَلَبْنَاهُ عَلَيْهِ ثُمَّ طُفْنَا بِهِ».

وقال الكلبي: كان الرَّجل إذا سافر فنزل منزلاً، أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها فاتخذه رَبًّا، فإذا ارتحل تركه!

جاء الإسلام ليعلن نظاماً واحداً في العقيدة عنوانه: (لا إله إلا الله، محمَّد رسول الله)، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾ [الإخلاص: 1-4].

عاش النَّاس في الجاهلية فوضى ما بعدها فوضى، ففي علاقة الرَّجل بالمرأة مثلاً أطلقوا العنان لشهواتهم، وتركوا لجام أنفسهم تسير بهم حيث يأمرهم الهوى، فالزِّنى، وهتك الأعراض، والاعتداء على الحرمات، واختلاط الأنساب كان شائعاً.

وكانت النِّساء تُباع سِلَعاً في قصائدهم الشِّعرية وفي لياليهم الحمراء، وتُعْرَضُ مفاتنُها أمام الأنظار كما تُعْرَض الإبل والشِّياه وسائر الدَّواب أمام التُّجار.

جاء الإسلام ليقضي على هذه الفوضى والعشوائية والجاهلية؛ ليعلن نظاماً طهوراً، وميثاقاً غليظا.

وفي الأخلاق عاشت الجاهلية فوضى الغش والخديعة والسَّطو والخيانة والكيد والغدر والكذب والغيبة والفحش والظلم.

فجاء الإسلام ليعلن نظام الصدق والأمانة والطهر والعفة والعدل والإحسان.

أرأيتم إلى هذه الفوضى؟ إلى هذا التفلُّت، وهذه العشوائية، وهذه الجاهلية. في العقيدة والشريعة والأخلاق.

لقد جاء ليهدم الفوضى ويبني النظام، لذلك عرَّف العلماء الدِّين بأنه نظامٌ إلهيٌّ، سائق لذوي العقول السَّليمة، باختيارهم المحمود لِمَا فيه صلاحهم في الدُّنيا، ونجاتُهم في الآخرة.

إنَّ دين الله الذي شرعه للناس مبناه على النظام.

يقول أحد المفكرين: إنِّي جُبْتُ الأرض قاطبةً، فلم أجدْ نخلةً واحدةً خالفتْ نظام خَلْقِها؛ جذورها للأعلى فوق الأرض، وساقها وثمرها للأسفل تحت الأرض!

وطُفْتُ المعمورةَ بأرجائها، فلم أجدْ حبةَ تمرٍ خالفتْ نظامَ خلقها، المادة الحلوة في الخارج، والنواة في الدَّاخل.

لو تفكَّرنا في أجسامنا؛ لوجدنا الله خلقنا بنظامٍ دقيقٍ، فالدَّم يجري في عروقه، لا يخرج عن مساره، والطَّعام يسري في دروبه، والهواء يمرُّ في أقنيته، المعدة تهضم، والقلب يخفِق، والدِّماغ يأمر، والكِلْية تُنَقِّي، والنُّخامة تُفْرَز، والكبد يُوَلِّد ذلك بنظام.

إنَّ فطرة الله التي فُطر النَّاس عليها هي النِّظام.

لو نظرنا إلى السَّماء؛ لوجدناها بُنيت على النِّظام الفَلَكي المعجِز، ولو تفكَّرنا في الأرض في بحارها وأنهارها وسهولها وجبالها، في نبتها وثمارها، في ليلها ونهارها؛ لوجدناها بُنِيَتْ على النِّظام.

إن صبغة الله التي صبغ خلقه بها هي النظام.

بعد كلِّ ما سمعتَ: هل تكون أيُّها المسلم منظَّماً أو فوضويًّاً؟

هل تكونين أيَّتها المسلمة منظَّمة أو عشوائية؟

كان سعد بن أبي وقاص ﷺ قائدَ جيش في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ، وأقبل ليتسَّلم من بيت المال ما خُصِّصَ له من راتب، وكان الجند يقفون بنظام أمامٍ بيت المال، فَسَحَ الجند لقائدهم سعد ليتقدَّم عليهم، فلمَّا اقترب من عمر ﷺ خفقه بالدُّرة، وقال: (الزمْ مكانَك يا سعد).

إنَّها التربية على النَّظام.

وتروي كتب الحديث أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان إذا أرسل اثنين أَمَّرَ أحدهما؛ ليُعلِّمَنا النِّظام. وكان ﷺ يمسح مناكب الصحابة في الصلاة يسوي صفوفهم ويقول «اسْتَوُوا وَلَا تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ» [مسلم]. يعلمهم بذلك النظام.

ديننا كلُّه نظام، فالصَّلاة على وقتها نظامٌ في الأوقات، وصلاة الجماعة والانضباط بأفعال الإمام نظامٌ في الجماعات، والصَّوم نظامٌ في الطَّعام، والزَّكاة نظامٌ في الإنفاق، والحجُّ نظامٌ في الاجتماعات. وهكذا سائر العبادات والمعاملات المشروعة.

إنَّنا في اليوم الذي نقفُ فيه على موقف الحافلات بنظامٍ، وفي اليوم الذي نخرج فيه من أبواب مدارسنا ومساجدنا بنظامٍ، وفي اليوم الذي نرتِّب فيه أحذيتنا إذا دخلنا المساجد بنظامٍ، وفي اليوم الذي تكون فيه منتجاتنا موافقةً للمواصفات،

وفي اليوم الذي نستخرج فيه المعاملة الرسمية بشروطها وفي وقتها بنظام. وفي اليوم الذي نربي أولادنا على النِّظام... ذاك اليوم هو الذي نكون فيه صالحين لوراثة الأرض؛ لأنَّ الأرض لا يرثها إلَّا أهل النِّظام: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء:105].

جاء في التفسير المنير: الصَّالحون لعمارتها.

في خاتمة هذه الخطبة عن فضيلة النظام وشؤم الفوضى كيف يخلص المرء نفسه من العشوائية والفوضى؟:

أربعة أمور تعينك على التخلص من العشوائية والفوضى هي:

1- التدرب على النظام والبدء بالواجبات الشرعية في أوقاتها:

جميع العبادات قائمةٌ على نظام محكم، فللصلاة أوقاتٌ وشروطٌ وأركانٌ وسننٌ، وللصيام مواعيد إمساكٍ وإفطارٍ، وللحج شعائر وللزكاة ضوابط محددة لكل نوعٍ من أنواع المال وهكذا في كل شعائر الإسلام...

فإذا بدأت تحافظ على صلاتك في المسجد منضبطاً بوقتها، وبدأت صومك ممسكاً ومفطراً في الأوقات وبدأت الزكاة في وقتها وبمقدارها بدأت التدرب على النظام.

2- اكتب برنامج مهامك اليومية والأسبوعية والشهرية والسنوية

مما يعين على تنظيم الوقت أن يضع الإنسان لنفسه قائمة بالمهام المطلوبة منه كواجبات الدراسة، والعبادة والعمل، والأسرة، وصلة الأرحام وغير ذلك... ثم يرتبها حسب ما يراه ضروريا وما يراه عاجلا ولعله يضيف إلى ذلك قائمةً أسبوعيةً وأخرى شهرية..

ولا يُطْلب من قائمة المهام أن تكون شديدة الدقة، بل هي معينة على ترتيب الأوقات وضبطها قدر الاستطاعة.

3- تخلص من الفوضى في مساحتك المادية:

فتراكم الأشياء لا يشغل مساحة منزلك فحسب، بل يؤثر أيضاً على طاقتك العقلية. وفقاً لدراسة أجريت عام 2023، فإن الإفراط في امتلاك الأشياء يقلل من الرضا عن الحياة ويزيد التوتر لدى جميع الفئات العمرية.

وتخلص مثل ذلك من الفوضى الرقمية: فالفوضى الرقمية تستنزف طاقتك العقلية دون أن تشعر. ففي دراسة أجريت عام 2019 ربطت بين الإفراط في استخدام الشاشات وزيادة القلق وتراجع احترام الذات.

ومن ذلك بريدك الإلكتروني بحذف الرسائل غير الضرورية والاشتراك فقط في الرسائل المهمة.

واحذف التطبيقات التي لم تستخدمها خلال الأشهر الثلاثة الماضية.

وأوقف التنبيهات غير الضرورية لتقليل التشتيت

وأنشئ مناطق خالية من التكنولوجيا، مثل غرفة النوم أو طاولة الطعام.

وحدد وقتاً يومياً لاستخدام التطبيقات الترفيهية، أو مواقع التواصل.

4- صاحب أهل الانضباط والنظام ودع أهل الفوضى: فالصاحب يعدي.

أيها الإخوة:

لا يختلفُ عاقلان على أنَّ النِّظامَ بركةٌ، وأنَّ الفوضى شؤمٌ، على أنَّ المَنظَّم منتجٌ، والفوضوي ضعيف الإنتاج. على أنَّ الطَّالب المَنظَّم، والتَّاجر المَنظَّم، والموظف المَنظَّم، والأب المَنظَّم، والزَّوجة المنظَّمة، والأسرة المنظَّمة، والمجتمع المَنظَّم...، كلُّ هؤلاء عنوان حضارةٍ ورقيٍ وتمسُّكٍ بالدِّين.

كما لا يختلف اثنان على أنَّ المدرس العشوائي، والزَّوج المزاجي، والعائلة الفوضوية، والمجتمع المتَّبع للأهواء...، كلُّ هؤلاء عنوان تَخَلُّفٍ وجهلٍ وتقصيرٍ في حقِّ الدِّين.

وليس أنفع للمرء من تزكيته نفسَه بتحريرها من الفوضى وتجميلها بالنظام. وقد كان رسول الله ﷺ يدعو يقول: اللَّهمَّ آتِ نَفسي تَقْوَاها، وزَكِّها أَنت خَيرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنتَ وَلِيُّها ومولاها.

والحمد لله رب العالمين